مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١: ١٠–١٤؛ ٢: ١–٣)

أنتَ يا ربُّ في البدءِ أسَّستَ الأرضَ والسمواتُ هي صُنعُ يدَيْكَ* وهي تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها تَبلى كالثوبِ* وتَطويها كالرداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَنْ من الملائكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن يميني حتى أجعلَ أعداءَكَ موطِئاً لقدَمَيْكَ* أليسوا جميعُهم أرواحاً خادِمةً تُرْسَلُ للخدمةِ من أجلِ الذينَ سيرثونَ الخلاص* فلذلك يجبُ علينا أن نُصغي إلى ما سمِعناهُ إصغاءً أشدَّ لئلاَّ يسرَبَ من أذهانِنا* فإنَّها إن كانتِ الكلمةُ التي نُطِقَ بها على ألسنةِ ملائكةٍ قد ثبَتت وكلُّ تعدٍّ ومعصيَةٍ نالَ جزاءً عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إن أهمَلنا خلاصاً عظيماً كهذا قد نُطِقَ به على لسان الربِّ أولاً ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ سمِعوه.

الصلاة

في الأحد الثاني من الصوم الكبير وضعت لنا الكنيسة المقدّسة تذكاراً للقديس غريغوريوس بالاماس، الذي ارتبط اسمه بالصلاة القلبيّة وبالهدوئيّة. فبعد أسبوعين من الصوم والصلوات المكثّفة أرادت الكنيسة أن تضع الأطر السليمة لمسيرتنا هذه، مسيرة الصلاة والصوم، من خلال التأكيد على أنّ الهدف هو وجه الربّ يسوع الذي سنلتقيه يوم الفصح فنقوم معه ونصعد إلى الآب السماوي.

العدد ١١/٢٠١٤
الأحد ١٦ آذار
الأحد الثاني من الصوم
(أحد القديس غريغوريوس بالاماس)
تذكار الشهيد سابينوس
والبار خريستوذولوس
اللحن الخامس
إنجيل السَحَر الخامس

لقد كان الربّ يسوع نفسه قدوتنا في الصلاة، إذ كان دائماً يصلّي إلى أبيه السماوي. فإنّنا نجد في إنجيل لوقا أنّ الربّ يسوع يصلّي قبل كلّ خطوة مهمّة في رسالته الخلاصيّة: عند معموديّته (٣: ٢١). قبل اختياره الإثني عشر تلميذاً: «وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلّي، وقضى الليل كله في الصلاة إلى الآب» (٦: ١٢). قبل إعلان بطرس الإيمانيّ (٩: ١٨)؛ عند التجلّي (٩:٢٨)؛ قبل تعليم الصلاة الربّيّة: «وإذ كان يصلّي في موضع لما فرغ قال واحدٌ من تلاميذه: يا ربّ علّمنا أن نصلّي كما علّم يوحنا أيضاً تلاميذه. فقال لهم: متى صلّيتم فقولوا أبانا الذي في السموات...» (١١:١)؛ وفي الجثسيمانيّة: «ولمّا صار إلى المكان قال لهم: صلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة. وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلّى قائلاً: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك. وظهر له ملاك من السماء يقوّيه. وإذ كان في جهاد كان يصلّي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض» (٢٢:٤١–٤٤). يسوع هو معلّم الصلاة، ويحضّنا دائماً على أن نكون رجال صلاة: «اسهروا وصلّوا» (متى ٢٦: ٤١)، «لماذا أنتم نيامٌ؟ قوموا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربةٍ» (لو ٢٢: ٤٦).

لكن الصلاة ليست عملاً يقوم به المؤمن من خلال تلاوة بعض النصوص أو ترداد بعض الكلمات، إنّما هي حالة، هي حالة الوقوف أمام الحضرة الإلهيّة، وما النصوص الموضوعة أو الكلمات التي نتلوها إلاّ وسيلة لتشدّنا إلى الوقوف أمام الله

الإنجيل

(مرقس ٢: ١–١٢)

فـي ذلك الـزمـان دخـل يسوعُ كَفَرْنَاحومَ وسُمع أنَّـه في بـيتٍ* فـلـلـوقت اجتمعَ كثيرون حتى إنَّه لم يعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ الباب يَسَعُ وكان يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحملهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أن يـقتربـوا إلـيـه لسبب الجمع كشفوا السقفَ حيث كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعاً عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* وكـان قـومٌ مِـنَ الـكـتـبـةِ جالسين هناك يفكّرون في قلوبِهِمْ ما بالُ هذا يتكلَّمُ هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يـغـفِـرَ الخطـايـا إلاَّ اللـهُ وحدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحِه أنَّهم يفكِّرون هكذا في أنفسِهم فقال لهم لماذا تفكِّرون بهذا في قلوبكم* ما الأيسرُ أن يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحملْ سريرَك وامشِ* ولكن لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفِرَ الخطايا قال للمخلَّع* لك أقول قُمْ واحملْ سريرَك واذهب إلى بـيـتك* فـقـام للوقتِ وحملَ سريرَهُ وخرجَ

فنقدّم جواباً وشكراً على نعمه التي يغدقها علينا. لهذا طلب منّا الرسول بـولس في رسـالـتـه الأولى إلى أهـل تسالونيكي أن «صلّوا بلا انقطاع» (٥: ١٧)، كما أنّ الربّ يسوع أعطانا مَثَل الأرملة وقاضي الظلم حتى نصلّي كلّ حين ولا نملّ (لو ١٨: ١–٨).

غير أنّ الإنسان، كونه مخلوقاً، بحاجة إلى الوسائل التي منحها إيّاه الخالق حتى يستطيع أن يصل إلى تلك الحالة حيث يقف وجهاً لوجه أمام خالقه. إنّه بحاجة إلى كلمات يسمعها ويردّدها، ويقرنها بحركات الجسد من سجود ورسم إشارة الصليب واستعمال المسبحة. إنّها كلمات وحركات خارجيّة الهدف منها تدريب الحواس للوصول إلى غير المحسوس. وقد وعت الكنيسة أهمية الصلاة ونظّمتها، معتمدة بشكل أساسي على المزامير، ووضعت لها ترتيباً، لكي يرفع المؤمنون الصلوات الشكريّة والابتهاليّة أمام الله بلياقة وترتيب، ما يساعد على بناء الكنيسة التي هي جسد المسيح. هذا على صعيد الجماعة، أمّا على صعيد الصلاة الفرديّة فقد حثّت الكنيسة المؤمنين على الهذيذ الدائم باسم الرب يسوع، انطلاقاً من صلاة العشار التي تعبّر بشكل مثالي عن حالة الصلاة هذه: «وأمَّا العشَّار فوقف من بعيد، لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء، بل قرع على صدره قائلاً اللهم ارحمني أنا الخاطئ» (لو ١٨: ١٣). وقد أعادت الكنيسة صياغتها على الشكل التالي: «ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ»، فيردّدها المؤمن مستعملاً المسبحة وصانعاً سجدة في كلّ مرة، وراسماً إشارة الصليب. كما يستطيع المؤمن أن يردّدها أيضاً خلال عمله أو خلال تنقّله من مكان إلى آخر... بغضّ النظر عن حالته الجسديّة (جالساً كان أم واقفاً، ماشياً كان أم مستلقياً) من دون أن يلفت نظر الآخرين إلى هذه الصلاة، فتكون صلاته في الخفية (متى ٦: ٥–٦). والهدف من هذا الهذيذ باسم الرب يسوع هو الوصول إلى وعي حضور الله في حياتنا في كلّ لحظة، متذكّرين وصاياه في كلّ ما يواجهنا وعاملين بها، متمّمين قول صاحب المزامير: «جعلت الرب دائماً أمام عيني» (مز ١٥: ٨).

إنّ الإطالة في الصلوات وتكرارها في هذا الإطار ليست إطالة أو تكراراً باطلَين، بل الهدف من ذلك هو ما ذكرناه سابقاً. مع العلم أنّ الربّ يسوع كان يفعل ذلك. فقبل اختيار تلاميذه قضى الليل كلّه في الصلاة إلى الآب (لو ٦: ١٢)، وفي الجسثمانية كرّر الصلاة نفسها عدّة مرات: «ثمّ تقدّم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلّي قائلاً: يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر عنّي هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت. ثمّ جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياماً، فقال لبطرس: «أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلّوا لئلاّ تدخلوا في تجربة. أمَّا الروح فنشيط وأمَّا الجسد فضعيف. فمضى أيضاً ثانية وصلَّى قائلاً: يا أبتاه، إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلاّ أن أشربها فلتكن مشيئتك. ثم جاء فوجدهم أيضاً نياماً إذ كانت أعينهم ثقيلة. فتركهم ومضى أيضاً وصلَّى ثالثة قائلاً الكلام بعينه»

أمامَ الجميعِ حتى دهِشَ كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأينا مثلَ هذا قطُّ.

تأمل

«مَن يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله وحده».

فيما نعترف بأنّ ربّنا يسوع المسيح هو نفسه إله كامل وإنسان كامل، نقول بأنّ له هو نفسه كلّ ما للآب ما عدا عدم الولادة، وأنّ له كلّ ما لآدم الأول ما عدا الخطيئة وحدها، ذلك أنّ له جسداً ونفساً ناطقةً وعاقلة، فإنّ له هو نفسه – في مقابل الطبيعتين الإثنتين – الخواص الطبيعية لكلّ من الطبيعتين الإثنتين: أي مشيئتين طبيعيّتين إثنتين، إلهية وإنسانيّة. وفعلين طبيعيين إثنين، إلهياً وإنسانياً. وحريّتين طبيعيتين إثنتين، إلهية وإنسانية. وحكمةً ومعرفةً إلهيّتين وإنسانيّتين. فهو مساوٍ لله الآب في الجوهر ويشاء ويفعل بحريّة الله. وبما أنه مساوٍ للإنسان في الجوهر، فهو يشاء ويفعل بحريّة كالإنسان نفسه. فالعجائب عجائبه والآلام آلامه.

إذاً بما أنّ للمسيح طبيعتين فإنّ له أيضاً مشيئتين طبيعيتين وفعلين طبيعيّين، وبما أنّ أقنوم طبيعتيه واحدٌ، نقول (متى ٢٦: ٣٩–٤٤).

تكمن المشكلة حين نحيد عن الهدف فتصبح الوسيلة، التي هي الصلاة، الهدف البديل. وهذا ما يؤدي بالكثير من الناس إلى النفور من الصلاة والابتعاد عن ممارستها، لا بل يتحوّل الأمر عندهم في بعض الأحيان إلى كرهٍ لهذا النوع من الصلاة. كما قد يؤدّي بنا الأمر إلى إدانة مَن لا يصلّون مثلنا، واقعين بذلك في الدينونة: «لا تدينوا لكي لا تُدانوا» (متى ٧: ١). لذلك علينا أن ننتبه انتباهاً جدّيًّا لكي لا نضيّع الهدف، فنصلّي رافعين أيدينا إلى الله العليّ، ورافعين معنا الآخرين في صلواتنا، فنصل إلى يوم الفصح المبارك فرحين مع الآخرين بمشاركتنا للفصح السرّي، الذي هو ربّنا يسوع المسيح الناهض من القبر.

العجائب

كثيراً ما يخبرنا فلان عن أعجوبة حصلت معه أو مع أحد أصدقائه، أو قد سمع عنها من أحدهم نقلاً عن آخر. قد تكون ظهوراً لملائكة، أو شفاء عجائبياً، أو أيقونة ترشح زيتاً، أو تمثالاً يتحرّك أو يَدمع. وتسارع وسال الإعلام التقليدية كما مواقع التواصل الاجتماعي إلى تغطية الخبر، إن في سبيل إظهار التقوى أو في سبيل التأكيد على الإيمان المستقيم، وفي أغلب الأحيان من أجل السبق الإعلامي.

هل علينا أن نؤمن بكل أعجوبة نسمع بها؟ وفي حال لم نصدّق هل نكون قد أنكرنا قدرة الربّ على صنع المعجزات؟

يتّضح لنا من خلال مطالعة الكتاب المقدس أن كل العجائب هي من صنع الله. فالآب هو صانع العجائب في العهد القديم، والمسيح في العهد الجديد، والروح القدس من خلال التلاميذ والرسل والقديسين منذ صعود ربنا إلى السموات وحتى أيامنا هذه. كما للشيطان القدرة على أن «يغيّر شكله إلى شبه ملاك نور» (٢ كور ١١: ١٤)، أي أن يضلّل المؤمنين، دون أن يعني ذلك أنه يستطيع إقامة الموتى أو شفاء الأمراض. فهو لا سلطة له على الأجساد.

ما هي الأعجوبة؟ وكيف نعرّفها؟ العنصر المشترك بين العجائب هو خرق قانون الطبيعة، فإن طارت الشجرة قلنا إنها أعجوبة لكن نسينا أن الأعجوبة الأصلية هي الشجرة بحد ذاتها، وما طيرانها سوى امتداد للأعجوبة الأصلية. فكيف لبذرة صغيرة أن تصبح شجرة والشجرة ثمراً؟ إنما تبقى عمليّة الخلق هي الأعجوبة الأصلية، لكننا لم نعد نراها بسبب إعتيادنا عليها! نسينا أن الله خلق الجماد والحيوان والإنسان من العدم، ورتّب الكون بدقة لا متناهية حتى أن «شعور رؤوسكم جميعها محصاة» (متى ١٠: ٣٠)! إن نظرنا قليلاً في الطبيعة سنرى حتماً الله فيها. فالخليقة هي الإعلان الأول والدائم لله عن وجوده وحكمته وعنايته ومحبته «السموات تذيع مجد الله والفلك يخبر بأعمال يديه» (مز ١٩: ١). بالطبع لم تكن الخليقة الوسيلة الوحيدة لكي يتعرّف بها الإنسان على خالقه، فالكتاب المقدّس يحدثنا في بداية صفحاته عن شركة شخصية مباشرة مع الله. لكن الإنسان، بعد ابتعاده الطوعي عن الله بالخطيئة، خسر إمكانية

بأن المسيح ربّنا واحدٌ أيضاً وهو الذي يشاءُ ويفعل طبيعيًّا كلّ ما يشاؤه ويفعله بحسب كلتا الطبيعتين وانطلاقاً منهما وفيهما. فهو يشاء ويفعل في كلّ من الصورتين بمشاركة الأخرى، وعلى ما يكون جوهر الأشياء نفسه تكون مشيئة الأشياء ويكون فعلها أيضاً. يكون تباين جوهر الأشياء يكون تباين الإرادة والفعل.

لذلك فإننا نعرف في الآب والإبن والروح القدس هويّة الطبيعة نفسها من هوية الفعل والمشيئة نفسهما. وإنّنا نعرف تباين الطبيعتين في التدبير الإلهي من تباين الفعلَين والمشيئتين. وإذا ما فهمنا تباينَ الطبيعتين فنعترف أيضاً بتباين المشيئتين والفعلين. وكما أنّ عدد الطبيعتين في المسيح الواحد نفسه – إذا ما فُهم بروح التقوى وبُشِّر به – لا يُقسم المسيح الواحد بل هو يركّز أيضاً تباين الطبيعتين تركيزاً سالماً في الاتحاد، كذلك أيضاً عدد المشيئتين والفعلين المتواجد تواجداً جوهريًّا في طبيعتيه لا يقسمه. فقد كان لكلتا الطبيعتين نصيبٌ في خلاصنا – إن بالمشيئة وإن بالفعل – ولم يُدخل ذلك انقساماً.

القديس يوحنا الدمشقي

هذه المعاينة المباشرة، ولم يبقَ للبشر سوى الخليقة المنظورة والمحسوسة التي تذكرهم بالخالق، فهو «لم يترك نفسه بلا شاهد» (أع ١٤: ١٧).

يقول بعض العلماء أن الإعجاز هو ما نعجز عن فعله، وبالتالي فشروق الشمس وغروبها عند القدماء كان إعجازاً، بينما في أيامنا هذه ومع تطوّر المعرفة، أصبحت حركة الشمس أمراً اعتيادياً. ويستطرد هؤلاء قائلين أن الدين هو كل ما لا يدركه الإنسان. في القديم عبدت الشعوب عناصر الطبيعة وجعلت منها آلهة (إله الشمس، إله البحر...) وسلّطتها عليها، ثم عادت وبدأت بالتخلّي عنها تدريجياً بسبب تطوّر العلم وتفسيره لهذه المجهولات. هكذا أصبح العلم عدو الدين، فكلما نما العلم ومعه المعرفة البشرية صغر الدين وقلّت أهميّته في حياتنا، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى تقسيم الشعب إلى قسمين: المؤمن الجاهل والملحد العالِم. لكن نسي هؤلاء الجهّال أن العلم يبحث في تفسير قوانين الطبيعة وفهمها، بينما الله خلقها من العدم! فهل يمكن لأحدهم أن يخلق حبة رمل واحدة من العدم؟

إستناداً إلى ما ورد أعلاه يمكننا القول ان أعجوبة شفاء المخلّع الوارد ذكرها في النص الإنجيلي لهذا الأحد هي امتداد لاعجوبة الخلق الأصلية: «أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل» (يوحنا ٥: ١٧). عمل الله مستمر، وفي هذه المرة كأنه خلق المخلّع من جديد. صارت حياة المخلّع جديدة بعدما شفي فطفق يمجد الله.

الأعجوبة إذاً، هي أن يتجدد الإنسان في داخله، وإن كان حدث الشفاء هو قالبها الخارجي. سوف يعود هذا المخلّع إلى حياته الطبيعيَّة، وسوف يمرض من جديد ويموت، إلاّ ان الأعجوبة الأصلية تبقى معه، ألا وهي تجديد نفسه واقترابها من الله.

ما هدف الأعجوبة؟ انها تحصل لتذكّرنا بأن الله يحبنا وهو هنا لأجلنا، دون أن نحصر محبة الله بالعجائب. فهي وجه من أوجه محبته. كما قد تساعد الأعجوبة على تثبيت إيماننا، رغم أننا في كثير من الأحيان نغلق أعيننا كي لا نراها، فكم من العجائب صنعها يسوع أمام يهوذا؟ من هنا نفهم لماذا أراد الرب إخفاء بعض من عجائبه، لأنها ليست حدثاً جماهرياً. فالإيمان شرط أساسي لكي نتفاعل مع الأعجوبة «يا ابنة إيمانك قد شفاك، فاذهبي بسلام وتعافي من علّتك» (مر ٥: ٣٤).

أخيراً قد يتساءل البعض عن الموقف الذي يجب اتخاذه حيال العجائب التي نسمع عنها في أيامنا، وقد تبين في الكثير من الحالات أنها لم تكن سوى ألاعيب قام بها بعض الأشخاص من أجل الشهرة أو المال. أعتقد أنه من المهم عدم الإنجرار الأعمى وراءها، فحصولها لا يزيدنا إيماناً، كما عدم حصولها لا ينبغي أن يشككنا. الأعجوبة الكبرى تبقى القيامة من بين الأموات، والطبيعة شاهدة على قدرة الله، وكل أعجوبة أخرى تبقى بغاية السهولة مقارنة بما فعله الله لأجلنا.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb